المحاضرة الثانية

الفصل الثاني
الفكر العربي في العصر الجاهلي

ان معلوماتنا عن حضـــارات الدول العربية القديمة لا تزال قليلة جداً وذلك لعدم توافر العلماء على دراســتها من جهة ، وعدم نشــر جميع النصــوص التي عثر يها المستشرقون من جهة أخرى غير اننا مع هذا نستطيع أن تؤكد ان العرب بوجه عام كانوا على جانب من الثقافة والمعرفة بدليل :-

١- ما ذكرته عنهم الامم القديمة .

٢- ما جاء عنهم في الكتب الدينية المقدسة .

٣- الآثار التي وجدها المنقبون والسياح والمستشرقون كالنقوش التي عشر عليها كل من «آرنو» و «هاليفي» و « گلازر» في اليمن ، وكان من بينها نصـــوص فيها قوانين عســكرية ، ووثائق قانونية ، وأنظمة أشــبه بالانظمة الدســتورية . ويمكن أن نلحظ ما وصل اليه العرب من الثقافة والعلم فيما نجده من رقي في الهندسة المعمارية التي تتجلى في بناء قصــورهم باليمن ، والهندســة المدنية في نظاء الري ، كهندســة الســدود والخزانات . وفي مهارة أهل اليمن بصــناعة الأســلحة ، وحياكة البرود اليمانية ، وتصــويرها بصــور الرجال ، والحيوانات ، والطيور وفي الكتابة بالخط المســند . وكان بين العرب من ناحية أخرى في اليمن والحجاز وغيرهما فيما يظهر مصــورون ومثالون ملأوا معابدهم بتماثيل آلهتهم من الحجر ، والمعدن ، والخشــب وصوروا جدران الكعبة بمختلف التصاوير . ويطلق على العصر الذي سبق عصر الرسول (ص) اسم «الجاهلية» . وليست لفظة الجاهلية هنا مشتقة من الجهل الذي هو ضــد العلم ، والمعرفة ، لان القرآن قد وصــف العرب المعاصــرين للرســول (ص) بالعلم فقال : (كتاب فصــلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون) . ووصــفهم بأنهم كانوا يعرفون القراءة (حتى تنزل علينا كتاباً نقروه) . ويدل فهم العرب الي للقرآن فهماً جيداً على مقدار رقتي اللغة العربية يومئذ . وأما وصفهم بالجاهلية فهو:-

١- من الضــلال ، والجهل بالدين الحق ، ولانهم كانوا (يســتحبون الحياة الدنيا على الآخرة ويصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجاً أولئك في ضلال بعيد) .

٢- من المكابرة والعناد ومقاومتهم للاسلام أول الأمر وقولهم للرسول (ص) (... لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ، أو تكون لك جَنَّة من نخيل ، وعنب فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تفجيراً ، أو تسقط السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبلاً ، أو يكون لك بيت من زُخْرُفَ ، أو ترقى في السَّــماءِ ، وَلَنْ نُؤْمِنَ

لِرَقِيكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كتاباً نقروه . قُل سُـبْحانَ رَبِّي هل كنت إلا بشـراً رسـولاً) . وكان العرب يدونون بعض أخبارهم في كراريس ، وصحف ، ورقوق ، ونقوش على الجدران والمباني ، والاضـرحة سـواء كان ذلك في اليمن أم في الحجاز . هذا وقد كانت الكتابة ، والقراءة منتشرتين بين العرب قبل الاسلام ليس في اليمن فحسب بل في الحجاز أيضاً . يدل على ذلك ورود آيات كثيرة في القرآن ذكر فيها أسماء أدوات الكتابة ، والقراءة ، ووسائلها كالقلم ، والكتاب ، والرق ، والصحف ، ويتار ، ويقرأ ، واكتب ، وتملى ، ويسطرون ، وعلم ...الخ . مما يدل على ان العرب كانوا يعرفون هذه الأدوات ، والمصطلحات ولا ينكرونها . قد احتاج أهل الحجاز الى القراءة ، والكتابة ، والاعمال الحسابية لانهم كانوا تجاراً . وقد وردت رحلاتهم تترى بين الشام ، ومصر ، والعراق ، وفارس . اليمن . وكانت كثرية الطبقة البارزة منهم تجاراً ، وأغنياء ، وزعماء ، ومما يدل الى ان القراءة ، والكتابة كانتا منتشرتين ، حتى في البيئات الفقيرة في مكة ، ما روي من أن بعض الأسرى الذين أسرهم الرسول (ص) في موقعة بدر الكبرى كانوا فقراء لا يملكون فدية فجعل النبي (ص) فداءهم أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة ، الكتابة والقراءة . وقد تعلم العرب أموراً مختلفة ، أوحتها اليهم حياتهم ، ونظام معيشتهم فقد عنوا بمعرفة الأنساب لانها من ضرورات العصبية القبيلية ، وعنوا بالانواء الجوية ، ومهاب الرياح لمعرفة حدوث الامطار ، وبمعرفة النجوم ومواقعها للاهتداء بها . وكان للكلدان الذين هاجروا الى الجزيرة العربية بعد تغلب الفرس عليهم في العراق أثر كبير في نشر علم الفلك في البلاد العربية فاقتبس العرب أموراً كثيرة وتعلموا مواقع الأبراج ، ومنازل الشمس والقمر . ولعل هذا هو سبب تشابه المصطلحات عند العرب والكلدان . وقد عرف العرب الكواكب السيارة ، والثابتة قال ابن قتيبة : ان العرب أعلم الأمم بالكواكب ومطالعها ، ومساقطها . وقد عني العرب أيضاً بما يعرف بالميتولوجيا وهي ما بين الآلهة من حروب ، وزواج ، وعلاقات . وفي الأدب العربي قصص وأشارات تثبت ذلك . وقد الّه العرب كثيراً من الاجرام السماوية كالقمر والشمس ، والشعرى . وعرفوا الكهانة . وفي الكتب العربية ذكر لكثير من الكهان والكواهن واسجاعهم . كما عرفوا القيافة وهي الاستدلال بآثار الأقدام ، والحوافر ، والاخفاف ، على أصحابها ، أو معرفة مكامن الاعداء ، والاستدلال على القرابة ، أو النسب بواسطة هيئة أعضاء الشخصين وأشكالهما ألوانهما . وكان للعرب المام بالطب والعقاقير، واستعمالها بشتى الطرق . وقد عرفوا فيه الحجامة ، والفصد ، والكي . وكانوا يعالجون بالقطع ، أو البتر بالاستعانة بالنار . وقد ظهر قبل الاسلام أطباء معروفون . كالحارث بن كلدة الذي رحل الى اليمن وفارس لدراسة الطب ، وتخرج في مدرسة جند نيسابور . وقد عالج أمراض العيون ، وأصاب في فارس مالاً كثيراً لمداواته عظماءها وكبراءها . ثم رجع الى الحجاز ، ودرس أمراض العرب ،

وأدرك الاسلام . وله نصائح طبية كثيرة ذكرها الطبيب ابن أبي أصيبعة الخزرجي في طبقاته . ويروى أن بعض الجاهلية حينما كانت تصاب أنوفهم في الحروب كانوا يتخذون أنوفاً من فضة أو من ذهب . ولما كان للعرب عناية خاصة بخيولهم ، وابلهم فقد كان بعض الاطباء بياطرة مختصين بمعالجتها . وكانوا يعنون بالانساب ، وقد رتبوا أنسابهم في مراتب أو طبقات . وقد كثر النسابون في الجاهلية للناس ، والخيل ، والابل ، وظلت الانساب محفوظة في صدر الاسلام لكنها أخذت تضيع وتهمل عندما تكاثر الموالي . وكان العرب يعرفون أخبار الامم ، كما كانوا يعرفون السير والتاريخ كحروب القبائل المعروفة بأيام العرب ، والقصص وأساطير الأولين . وكان منهم من يعرف بعض اللغات الاجنبية كالعبرية ، والآرامية ، والفارسية ، والحبشية ، والرومية . على أن أعظم ما برعوا به هو الشعر، أستعملوه للتعبير عن عواطفهم ، وبطولتهم وعزتهم ، وأنفتهم ، وكرمهم ، ووصف وقائعهم . وخير مثل للغة العربية في عصر النبي (ص) هو القرآن والشعر . أما القرآن فيدل فهم العرب له فهماً جيداً على مقدار معرفة العرب بلغتهم قبل مجيء الرسول (ص) لأن لغته كانت مألوفة لدى جميع الطبقات العربية . وأما الشعر فقد عده العرب من أبلغ كلامهم . والعرب أمة شعراء قرضوا من الشعر ما قرضته الأمم مجتمعة . وهم مطبوعون عليه لأنهم أهل حس مرهف ، وذوق سليم ، وخيال رائع . كانوا يسكنون في باديتهم ويتمتعون فيها بالحرية والاستقلال . ولم يخضعوا فيها لغاز أو فاتح . وقد ترك لنا العرب شعراً كثيراً ضاع أكثره لأسباب مختلفة . ومن أعظم القصائد العربية المعلقات التي جمعت في القرن الثاني الهجري والتي يقال عنها : ان العرب كتبوها بماء الذهب ، وعلقوها في أستار الكعبة ، وهي التي كانت تسمى بالمذهبات . وأما بعد الاسلام فان علوم العرب كانت تتكون :-

- مما كان عند العرب في الجاهلية والأقوام السامية .
- مما جاء به الاسلام كالقرآن ، والحديث ، والتعاليم الدينية والأنظمة المختلفة .
- مما اقتبسوه من الأمم الأخرى التي استولوا عليها في أثناء الفتح وبعده وكان من نتائج ذلك تغير الحياة الاجتماعية والسياسية لكثرة ما فتحه العرب من الأمصار ، وما غنموه من الأموال والخيرات . ولذلك اتسعت مطالب الحياة في هذا العصر ، واختلفت عما كانت عليه في الجاهلية ، فنشأت نواة العلوم الدينية ، والعلوم اللغوية ، والعلم الاجتماعية . وبدأ العرب في العصر الاموي وما بعده يأخذون بالتدريج ما عند الأمم الأخرى شفاهاً بصورة مجملة أول الأمر ثم بالترجمة المنظمة ، والتدوين ، وخاصة في العصور العباسية ، ثم أخذوا ينتجون ويؤلفون من ذلك الكتب القيمة التي كونوا بها ثروتهم الثقافية

الزاهرة . وقد امتازت علوم العرب بالابداع والابتكار والتنوع ، ذلك ان العرب ألفوا في علوم الدين ، والفلسفة ، والحكمة ، والطبيعيات ، والرياضيات ، والطب ، والفلك ، والجغرافية ، واللغة ، والسياسة ، والإدارة ، والأموال ، والاقتصاد . وقد عد بعضهم هذه العلوم عند العرب فبلغت (٣٠٠) علم حوتها الالوف المؤلفة من المخطوطات العربية التي تزخر بها اليوم مكتبات أوربة وأمريكة وآسية وأفريقية .